الحضارة المصرية

1- نبذة تاريخية

أصل المصريين خليط من عناصر متعددة لا يغلب فيها أصل معين. بعضهم من بلاد النوبة في الجنوب أو من ليبيا في الغرب أو من الفئات السامية في الشرق او الحامية في الشمال. تمازجت كل هذه العناصر في وادي النيل فكونت شعباً لا يزال حتى اليوم محافظا على ميزاته.

ولم تجد هذه العناصر صعوبة في التمركز، لأن فيضان النيل يجعل الأرض خصبة مرحلة لا تحتاج إلا الى القليل من الحراثة. كما أن فصل الشتاء لا يتخلله أمطار أو بَرد ليحدًا من نشاط الانسان. وبذلك تكون قد توافرت للمصريين أفضل شروط السكن والانتاج.

2-التنظيم

بالرغم من الحياة المنشابهة التي عاشتها مختلف المجموعات، فرضت طبيعة البلاد على سكانها ان ينقسموا في مجموعتين هما مصر العليا ومصر السفلى.

مصر العليا : يعتقد العلماء بان منطقة الفيوم» كانت اول ناحية اجتذبت السكان.

اما الدلتا، وهي اوسع المناطق الخصبة، فكانت لا تزال مستنقعات تفتقر الى رواسب النيل. و انطلاقاً من منخفض الفيوم تعددت المجموعات السكنية الى جنوب اسيوط الحالية، وغدت نواة البلاد المعروفة بمصر العليا أو الوجه القبلي.

***المجتمع المصري**

كانت الطبقية أساسا في المجتمع المصري. ولكنها اقتصرت على طبقتين اثنتين شديدتي الترابط، هما:

الطبقة العليا وطبقة العامة. بل يجوز القول طبقة حاكمة واخرى محكومة. فلا مجال للعمل امام الطبقة الثانية إلا فيما تهيئه لها الطبقة الاولى إمكانات من الطبقة العليا وهي المستأثرة بمقدرات البلاد،

عناصر الطبقة العليا

أ-الفرعون ولفظة فرعون مشتقة من (Peraa) ومعناها الصرح الكبير». وقد عنّت هذه التسمية في الأصل القصر الملكي ثم ما لبثت ان دلت على الفرعون نفسه.

وهي بذلك تشبه عبارة الباب العالي للدلالة على السلطان العثماني. ويجمع الفرعون بين سلطتين زمنية ودينية، بل هو اكثر من ذلك؛ انه ملك إله ومرجع ذلك الفترة التي سبقت توحيد مصر في دولة واحدة، اذ اعتبر الملك آنذاك نصف إله وخادما للإله هوروس. وبعد الوحدة اضحت لفظة « هوروس) تعني الفرعون نفسه. فرسخت مفاهيم سلطته الروحية في اذهان الشعر واعتبرت المراسم الدينية الواجبة للآلهة واجبة للفراعنة ايضا. واستقر الرأي على اعتباره ابن الاله «رع». ومنذ حكم الفرعون نارمر) (3200 ق . م) تبلورت السلطة الزمنية وتعاظمت حتى تجاوزت كل حد فكل ما في البلاد يتعلق بالفرعون؛ سواء شمل ذلك الاشخاص أم الاملاك والطاعة للفرعون عمياء تظهر في عظمة المراسم المحيطة به فهو يقيم العدل ويدأب على التنظيم ويسهر على الاقتصاد ويؤمن الدفاع؛ لا لأنه مسؤول امام شعبه بل ليكسب رنسى آلهة آبائه. - النبلاء اما الحاشية والطبقة النبيلة، فقد تكونتا تدريجياً من ذوي الفرعون و انسبائه والمخلصين له والمحظيين. فمن بينهم قد اختار الوزراء والكتبة والكهنة والقادة وسائر الموظفين ليعاونوه في حكم البلاد.

ب-الوزير: في اواخر الدولة القديمة تعاظمت سلطة الوزير حتى طغت على سلطة الفرعون نفسه. اسمه «لاتي» اي الوزير في لغتنا الحاضرة. لقبه وعيون وآذان الملك». اقتصرت مهمته في البدء على معاونة الملك في تصريف امور الدولة، من اشراف على الادارات والاقتصاد والقضاء. ثم أصبح مطلق الصلاحية خاصة اذا كان الفرعون ضعيف الشخصية. وهكذا تمكن الوزراء من حفظ هذا المنصب بالوراثة لذريتهم من بعدهم. الكهنة: بين الكهنة من تضاعف نفوذه حتى أصبح

فرعونا مثل أمينوفيس الرابع امنحوتب هي مرادف امينوفيس 1370 ق. م 1352 ق. م). وتعاظم سلطة الكهنة ناتج عن حاجة المجتمع إليهم وعن إنفرادهم في ادارة المعابد والتصرف بأموالها والاستئثار بنذوراتها. فجمعوا نتيجة لذلك مالا وفيرا، وامتلكوا نصف الاراضي الزراعية في مصر تقريبا. وتمرسوا بالعلوم والسحر حتى تضخمت سلطتهم المعنوية، وغدوا طبقة اجتماعية مميزة. وفي «طيبة» عاصمة الدولة الوسطى كان مركز رئيس الكهنة: كاهن أمون الاكبر»، الذي اعتبره الفراعنة مستشارهم الاول.

ج-الموظفون و اقتضى اتساع رقعة البلاد، واستطالة شكل وادي النيل، تقسيم الدولة الى مقاطعات (nomes) يرئس كلا منها موظف يمثل الفرعون وينقذ اوامره وما لبث ان تكاثر عدد الموظفين حتى بلغ عشرات الالوف، من درجات متفاوتة ابرزهم مدير الادارة وتوزعوا حسب صلاحياتهم ؛ فمنهم من تَسَلَّم شؤون الأمن ومنهم من اهتم بإقامة العدل وغيرهم اهتم بادارة ممتلكات الفرعون وغيرهم سهر على جباية الضرائب. ونتيجة الصلاحيات التي أعطيت لهم تعزز مركزهم الاداري وأصبح بامكانهم فرض العقوبات. وَزَادَ في منزلتهم صعوبة الوصول الى الوظيفة. فهي رهن بالملمين بالقراءة والكتابة أو بابناء الفرعون و انسبائه. وبعد غزوة الهكسوس تضاءل نفوذ حكام المقاطعات وغدا القادة العسكريون سادة فيها.

د-الكتبة : الكاتب شخص بالغ الاهمية، نظرا لقلة من يتقنون الكتابة والحساب والكتابة جهد متواصل ومراس طويل ، يوجب الكثير من الدقة والمران لفهم أوامر الفرعون وتنفيذ رغباته بحذافيرها. كذلك الكتابة أمر يتوق اليه الجميع، لما يفتحه امام الفرد من مجالات الكسب والرفعة. فمن بين الكتبة يُهيأ الكاهن او الوزير أحيانًا. وفي إطار الطبقة النبيلة يُذكر العديدون ممن جاد عليهم الفرعون بالهبات والاملاك فباتوا من الاغنياء او من الموظفين. وفي عهد الدولة الحديثة، أي حين اهتمت مصر بالفتوح في الخارج، برز القادة العسكريون وعلى رأسهم اولاد الفراعنة الذين احتفظوا بالقيادات وراثية. اما افراد الجيش فقد كانوا من طبقة العامة.

<u>عناصر الطبقة العامة</u>

والمقصود بها الطبقة المحكومة واليها ينتمي السواد الاكبر من السكان.

أ - الفلاحون معظم العامة من الفلاحين غير الملاكين . فعملهم هو كل ما يتوفر لهم من مداخيل. يقيمون على خدمة الطبقة العليا أو يرتبطون بسيد؛ مما يؤدي بهم الى حياة الاستعباد احياناً. ويرتبطون بالأرض ايضا كما في النظام الاقطاعي، فاذا بيعت الارض انتقلوا معها الى السيد الجديد.

و اتصفت طبقة الفقراء بالصبر والطاعة، وتعرضت للكثير من اعمال السخرة، لا سيما بعد فترة الحصاد او إبان الفيضانات؛ وهما مرحلة ركود في الحياة الزراعية وفترة راحةٍ بالنسبة للفلاح. وإذا قل الانتاج صبر الفلاح على الحرمان وتقشف و اكتفى بما يُقيم أوده ويستر عورته. ولكن الضرائب كانت مرهقة. فلا مناص له من دفعها وإلا تعرض للضرب مع افراد عائلته، أو طُرِدَ من الأرض لأنها ملك للفرعون او للمعابد او للنبلاء. وقد يكون مناخ مصر مسؤولا عن الخمول في بعض الحالات. لذلك ترى ان فُقدان الأمل بالبحبوحة لا يولد لدى المصري نقمة عارمة.

ولا يسر الفلاح بالفيضانات لأنها فترة راحة (فقد يتعرض للسخرة اثناءها)، بل لأنها السبب في إخصاب الحقول، حتى إذا انحسرت المياه عمد الى الفرس في ارض موحلة سهلة الحراثة، لذلك كانت السكة من او الحجر لا المعدن، ونوع في المحاصيل فزرع الحبوب من قمح وشعير و بقول وخضار واشجار مثمرة من نخيل وكرمة وتين ونبات البردي والكتان لأنه عنصر اساسي في صناعة النسيج، وربي الماعز والغنم والجواميس والابقار التي شاركته السكن احيانًا في بيته الوضيع. أما الخيول فقد اهتمت بها الطبقة العليا بعد غزوة الهكسوس لمصر.

ب-العمال أما العمال فلم تكن حال معظمهم بأفضل من حال الفلاحين اقتصر نشاطهم على الحرف التقليدية، يمثلها ما وصل الينا من نقوش ورسوم. معظم انتاجهم يكاد لا يكفي الحاجات الاستهلاكية ومطالب الطبقة العليا بنوع خاص وفي طليعة انتاجهم النسيج والخزف والحلي، وكذلك الزجاج الذي اخذه عنهم الفينيقيون وجعلوه شفافًا.

ولو أمعنا النظر في هذه المصنوعات لوجدناها تمت إلى الكماليات بصلة وثيقة، خاصة إذا اخذنا بعين الاعتبار مستوى المعيشة وطريقة الحياة آنذاك. لذا بدأ الحرفيون عملهم كموظفين لدى الفرعون والكهنة والنبلاء. و أتيح لبعضهم فيما بعد ان يكونوا احرارًا في مهنتهم. وقد نبغ كثيرون فاستحقوا جزيل الهبات حتى غدوا من الميسورين.

ولكن هذا لم يمنع ان تسوء حال البعض الآخر فلا أهمية لليد العاملة نظرا لتوفرها بأعداد ضخمة. وأحد الاهرامات (هرم ا خوفو) قد عمل في بنائه ما يقارب المائة ألف عامل، مدة لا تقل عن عشرين سنة، و بتكاليف تكاد لا تذكر اذا ما قورنت بأيامنا الحاضرة، وما ضخامة الابنية المصرية إلا الشهادة الصادقة على ضآلة قيمة اليد العاملة

ج -الجيش المصريون بطبعهم شعب مسالم، وهذا ما أخر ظهور جيشهم النظامي. و انما في بعض الأزمات، أو عندما يشعرون بخطر جيرانهم الليبيين والنوبيين، يعمدون الى اعلان تعبئة جزئية في المقاطعات. وتُعلن التعبئة عادة بعد الحصاد حتى لا يختل الميزان الاقتصادي.

ومع قيام الدولة الحديثة، والشعور باستراتيجية التوسع حتى لا يباغتوا في ارضهم، صَمَّم الفراعنة على الاحتفاظ بجيش دائم. اختاروا افراده منذ حداثة سنهم. ولم يسمحوا للفلاحين بان ينخرطوا فيه حتى لا يتأثر القطاع الزراعي. وشمل هذا الجيش، الى جانب العناصر الوطنية، مرتزقة بينهم الليبيون والسوريون والسودانيون والاحباش. وحياة الجند اجمالا مرهقة، لان معظمهم من المشاة. أما الاسلحة فقد اقتصرت في البدء على السيوف والقيسي، واخيرا ظهرت عربات الحرب.

3-الكتابة والأدب والعلوم

- الكتابة:

شعر المصريون بالحاجة الى تدوين افكارهم خوفا عليها من الضياع، فتهدر الفائدة من استمرار المعرفة. ولما كان الفكر مسخرا للدين بدا طبيعيا ان تتخذ الكتابة صبغة مقدسة فتسمى باسم الهيروغليفية» أي الصور المقدسة.

ومعرفتنا بالكتابة الهيروغليفية عائدة الى القرن التاسع عشر (١٨٢٢) حين اهتدى العالم الفرنسي شامپوليون (Champollion) الى قراءة حجر الرشيد». وهو حجر وجده أحد جنود حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٩. فقرأ على هذا الحجر كتابة باليونانية تقابلها كتابة بالهيروغليفية. فخطر له ان يكون النص اليوناني ترجمة للنص الهيروغليفي. وبعد بحث وتدقيق طويلين صحت نظريته، فقرأ بعض الاحرف والعبارات. ومن هذا المنطلق تمكن من حل معظم رموز هذه الكتابة.

- المرحلة التصويرية وقد مرت الهيروغليفية، شأن كل الكتابات، بمرحلة أولية تصويرية، حيث الصورة تعبر عن الفكرة فصورة القدم تعطي فكرة المشي، وصورة العصفور تعطي فكرة الطيران ولكن هذه الصور غير دقيقة من حيث أداؤها المعنى، اذ الصورة الواحدة قد تعطي أكثر من تأويل، أو تعجز أحيانا عن التعبير، فكيف: مثلا يعبر عن الكذب؟ إلا انهم لتمييز الاسم من الفعل جعلوا اشارة خاصة تتبع الفعل دائما.

- المقطع الصوتي اما المرحلة الثانية فكانت الكتابة المقطعية الصوتية. والمقصود بها ان الصورة عن مقطع كلمة فتحتفظ بقيمتها الصوتية فقط.

ولم ينتقل المصريون من مرحلة الى اخرى بصورة نهائية. بل كانوا يخلطون بين كلتيهما؛ مِمَّا يزيد في مشقة الكتابة والقراءة. وشامبوليون الذي كان أول من مر في هذه التجربة بين المعاصرين قال: «انها طريقة معقدة، فهي في الوقت ذاته تصويرية ورمزية ومقطعية». ولا نستغرب بعد ذلك إذا رأينا ان عدد رموزها واشكالها وحروفها قد وصل الى السبعمائة ....

واذا كان الفنانون والفراعنة قد سُرُّوا بهذه الكتابة، لما تضفيه من رونق الزخرف على الاعمدة والجدران، فان الكهنة عمدوا الى اختزالها فكانت الكتابة الهيراتيقية (Hieratique) . ومثلهم اختزلها العلمانيون منذ 700 ق.م. فكانت الدوميتيقية (Dométique) التي ظلت حيّة في الكتابة القبطية.

- **الأدب:**

وجدت الآثار الادبية في اماكن مختلفة من مصر. وذلك عائد لاختلاف ازمان نظمها أو كتابتها. فبعضها وُجد محفورًا على جدران الاهرام وبعضها مكتوبا على برديات ورق البردي) محفوظةٍ في جرار ، ومنسقة فوق رفوف قسم منها يتطرق للموضوعات الدينية والآخر للموضوعات الدنيوية. ففي المجال الديني برزت قصائد الفرعون وأخناتون، وأشهرها «نشيد لآتون» (الاله الواحد المتمثل في قرص الشمس). والمزامير التي تجلت في الادب العبراني مأخوذة في شكلها وجوهرها عن الادب المصري، وعن اقوال الحكيم أمينيمولي (Amenemope) اخذت التعاليم الموحدة فيما بعد، لما استشفت فيها من تحسس لروح العدالة ومسؤولية الانسان. أما الادب الدنيوي فقد ظهر متأخرًا. ووصلتنا بعض الأقاصيص لكتاب مجهولين، برعوا في التصوير وسموا في الاحساس كقصة سَنُوحِي المطرود من بلاده بعد انقلاب فاشل راجع) ميزة المجتمع المصري) وقصة القائد تحوت. وبعض القصائد الدنيوية تطرقت الى مواضيع وجدانية في الغزل والزهد.

كان المصريون أول من قسم السنة الى اثني عشر شهراً، وجعل اليوم أربعا وعشرين ساعة. يقيسونها بواسطة الساعات المائية ليلا والشمسية نهارا. وعرفوا التقويم منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد. فقد لاحظوا ان فيضان النيل يتكرر بانتظام مدهش، فاخذوا يعدون الايام التي تفصل بين فيضانين، حتى استقر رأيهم على العدد 365 يوما. فكانت السنة النيلية». وقسموا هذه السنة الى أربعة فصول اولها فصل الفيضانات.

و انتبه علماؤهم فيما بعد ان نجم الشعرى اليمانية) وقد سموه «سوتيس ايزيس يظهر قبل حدوث الفيضانات مباشرة. فاعتمدوا على ظهوره ليصححوا ونسي السنة الفارق الذي يصل الى يوم كامل كل اربع سنوات. ولكنهم اغفلوا زيادة هذا اليوم الى السنة الرابعة نحن اليوم نضيفه الى شهر شباط، الرابعة سنة كبيس» وعدد ايامها 366يوما). وثمة آثار تدل انهم عرفوا التقويم القمري. ولكن الكهنة فقط اعتمدوه الضرورات دينية. إذ الاعياد الكبرى تقع في نهاية السنة القمرية لا الشمسية. واضطر الكهنة ان يتضلعوا بعلم الفلك من اجل مطابقة التقويم القمري على الحساب الشمسي. اما التأريخ فلم يبدأوه من حدث طاغ مثل مجيء المسيح او هجرة النبي. بل كانوا يبدأونه منذ تولي الفرعون حكمه، فاذا مات عادوا منذ البداية يعدون سنوات حكم الفرعون الجديد؛ فيقولون مثلا في العام السادس من حكم الفرعون فلان.

- **الاعداد:**

ظلت معرفة المصريين بالأعداد محدودة وجهلوا الصفر. وكان العدد الاول يرمز اليه بخط عمودي ويتكرر بقدر ما يُريدونه من مرات ، حتى اذا وصلوا الى العدد عشرة رمزوا اليه بشارة خاصة (٨)، والماية (9) ولكنهم طوّروا علم الحساب، و اتخذوا من الجمع اساساً لعمليتي الضرب والقسمة ، وعرفوا الكسور دون ان يطوروها فتوقفوا عند الثلثين - والثلاثة ارباع.

- **الهندسة:**

وبرعوا في هندسة المساحة، لحاجتهم اليها في تحديد الممتلكات. لان النيل كلما فاض بدل المعالم. فيقتضي إذا، بعد كل فيضان ، أن تُعاد الحدود الى ما كانت عليه سابقا. وفي اعمال هندسة البناء، لم يعجزوا عن وضع التصاميم مع قياساتها اللازمة، فقد عرفوا الطريقة الصحيحة لحساب المساحة في المستطيلات والمثلثات والدوائر

وقد وجد المنقبون بَرْدِيّات تحمل معلومات طبية وفيرة ودقيقة، يشوبها احيانا السحر إذ الاعتقاد السائد ان المرض ناتج عن الارواح الشريرة .

- الطب:

أتيح للمصريين ان يتعرفوا الى الجسم البشري واعضائه عن كثب. والتحنيط قد ساعدهم كثيرًا في هذا المجال. لان التحنيط يستدعي تجويف الجسد، دون القلب اذ له منزلة خاصة، وجوفوا الرأس ايضاً، ودرسوا ما يحيط بالنخاع. ولكنهم بالرغم من ذلك عجزوا عن فهم الدورة الدموية، ووظيفة الاعضاء وعلاقاتها المشتركة. وقد علمتهم بعض الحوادث ان اصابة موضع معين في النخاع قد يؤدي الى شلل بعض اعضاء الجسد. والوصفات الطبية التي تضمنتها البردِيَّات، تتكلم عن الطريقة وعن العقاقير اللازمة المعالجة الجراح والكسور والالتهابات والاضطرابات المعوية. ثم تنصح هذه البرديات بعدد معين من الوصفات، على الطبيب ان يختار من بينها، أو أن يستعملها بالتدريج، مراعياً السن والطقس فيحذر من تناول بعض العقاقير خلال فصل الصيف.

- تقصيرهم:

بالرغم من التقدم الذي احرزه المصريون في دنيا العلوم، فقد بقوا عاجزين عن تفسير بعض المظاهر الهامة في حياتهم، كفيضانات النيل مثلا ؛ لان النيل كل شيء بالنسبة اليهم ، فهو الذي يمدهم بالخصب ، هنا وهو الذي ينظم حياتهم وسنيهم وفصولهم، ومن المعرفة اسباب فيضانه المنتظم. فنسبته اساطيرهم الى دموع الإلهة إيزيس التي تبكي زوجها أوزيريس وأوزيريس يرمز به المصريون الى النيل) . بينما يفسره آخرون بهبوب الرياح الشمالية الغربية التي تدفع بمياه المتوسط نحو داخل القارة ، فتمنع انصباب مياه النيل في البحر ، فتتضخم وتفيض لتغمر الوادي . والتفسير الثالث الذي اعطوه، هو ان النيل ينبع من اوقيانس واسع يحيط بالكون ويصعب الوصول اليه وغيرهم يرى الفيضان ناجما عن ذوبان الثلوج في مناطق ما داخل القارة. وفي كل ما ادعوه قد ابتعدوا عن التفسير الصحيح. وحتى في المجالات التي حلّق فيها المصريون، وبنوع خاص الطب، لم يستح اطباؤهم في الاعتراف بالتقصير احيانا، مما لم يقض نهائيا على نفوذ السحرة والمنجمين. وتشهد على ذلك البرديات الطبية المختلفة. نقاء سماء ورغم مصر لم يستطع علماء الفلك فيها ان يجدوا الحدود بين ما هو تنجيم وما هو علم. فبقوا مقصرين اشواطاً عن البابليين معاصريهم في بلاد ما بين النهرين.

- الديانة والفنون:

تعدد الآلهة عبد المصريون آلهة عدة. و يرجع تعدد الآلهة الى الفترة التي سبقت وحدة شطري مصر. فقد انقسمت إذاك الى مقاطعات (nomes) كل منها تنصرف الى عبادة إله خاص هكذا برزت عبادة الإله سيت» المتمثل في الافعى وعبادة الإله هوروس) المتمثل بالصقر. واحاط الملوك أنفسهم بهالة من القدسية فَتَسَموا خدام الإله هو روس واعتبروا انصاف آلهة. وفيما بعد اعتبر الفرعون نفسه إلها واشتهر في كل مدينة إله معين، ومنهم افتاح في منف وتوت) إله الفكر وهاتور» إله السماء ... وأله المصريون كثيرا من الحيوانات. وتأليه الحيوان ناتج من القوى الكامنة فيه كالأفعى في الصحراء والتمساح في النيل، فصفة الالوهية هي إذا للقوة المتمثلة في الحيوان، وفي النبات أحيانا، لا للحيوان او النبات بحد ذاته. هكذا اتخذ الآلهة اشكالا ومظاهر متعددة، فمنهم من يظهر في النقوش المصرية بشكل صقر أو تمساح أو ثور (العجل «أبيس») انسان ورأس حيوان كالإله أنوبيس».

وكثيرا ما تتوصل مدينة الى فرض إلهها على سائر المدن. فانتشار عبادة الإله رهن بسطوة المدينة وامتداد نفوذها ولم يتردد المصريون في الاقتباس عن جيرانهم؛ مثلا على ذلك عبادة الإله «رع» إله الشمس، واسمه ايضاً أمون. ثم اقترن الإسمان فأضحى الإله أمون - رع». ومع ثورة الفرعون امنحوتب الرابع أصبح اسم إله الشمس «أتون» (و اتخذ الفرعون لنفسه اسم «أخناتون». ولفظة «أتون» تحريف مصري لكلمة «أدون السامية ومعناها السيد، ومنها اشتق اسم أدونيس، وثورة اخناتون الدينية هزت بلاد الفراعنة من أقصاها إلى أقصاها فقد انتهكت حرمة الآلهة الاقدمين، وفرضت إلها واحدا

دون سواه هو الإله «أتون اي الشمس. إلا ان هذه النورة لم تدم طويلا فمع موت اخناتون حصلت ردة فعل قوية. واعاد توت عنخ أمون خليفة امنحوتب الر ابع (أو امينوفيس الر ابع) الاعتبار إلى الآلهة القديمة

- الحياة الآخرة اشترط المصريون لاستمرار الحياة بعد الموت أن يسلم الجسد من التفكك والتلف؛ ومن هنا اهتمامهم بالتحنيط. وقد يقوم التمثال المودع في القبر مقام صاحبه فتستمر علاقة روحه بجسده على ان مفهوم الروح يختلف لديهم ؛ فقد اعتقدوا بان الاندفاع الحيوي يلازم الجسد خلال الفترة التي تلي الموت مباشرة، ثم يتولى نَفْثَ الحياة في خياشيم الميت «طير» يجثم فوق رأسه ويمسك في مخالبه رمز الحياة. وبهذا يؤمن له استمرار الحياة. فيصبح الميت اذاك كائناً منتصراً حياً باستمرار منصفا بالقدرة الالهية. وقد عبر المصريون عن الفنون الاندفاع الحيوي بلفظة «خا»، وعن الطير بلفظة «با» وعن الكائن المنتصر بلفظة «أخ»). ونستنتج من ذلك ان البا» ووالخاء و الأخ» هي الانسان نفسه بعد انتقاله الى الحياة الآخرة. وفي هذا التفسير رفض لفكرة الموت ، هذا الموت الذي يخشاه كل انسان

وتطورت النظرة الى الماورائيات، بعد ان ادعى كهنة أمون في طيبة اكتشافهم لأسرار الخلود. فعرضوها بشكل نصوص جمعوها في كتاب الموتى، لتساعد الميت على العبور الى الابدية بسلام. فيودع كتاب الموتى) مع الميت يستعين به لمواجهة الدينونة او الحساب امام الاله أوزيريس». فتزان اعماله، واذا رجحت كفة سيئاته ابتلعه مسخ اسمه (الملتهمة) (La mangeuse) اما اذا رجحت كفة حسناته فينعم باستمرار حياته في مملكة أوزيريس. وظن بعض الموسرين ان بإمكانهم تهيئة أنفسهم للخلاص مسبقاً، فترددوا على المعابد لاقتباس بعض الاسرار بالإضافة الى التي كانوا يجدونها في كتاب الموتى.

علاقة الفن بالدين توثقت الصلة بين الفن والدين لا بل كان الدين سبباً في انطلاقة الفنون. وكانت الابنية الدينية كالمقابر والهياكل من أعظم الآثار المصرية. أما قصور الفراعنة فلم تكن إلا من الطين والآجر، فاندثرت معالمها باكرا.

وسبب الاهتمام بالابنية الدينية بسيط، هو ان الفرعون كان يهيئ نفسه دائما للحياة الآخرة.

الهياكل تكاد لا تخلو منطقة في مصر من الآثار الفرعونية، و اكثرها من المعابد والمقابر. اما الهياكل فأشهرها «الكرنك» و «الأقصر» و «إدفو» و «دَندَاره».

وبعضها محفور في شاهق صخري كمعبد ابي سنبل في بلاد النوبة، (وقد صار نقله حديثاً الى مكان أعلى حتى لا تطغى عليه مياه النيل بعد انشاء السد العالي ومعبد دير البَحْري». ونظرًا لأهميته وضخامته يغدو الهيكل منذ انشائه نواة لمدينة صغيرة فيها الكهنة والموظفون والعمال والحرس والفلاحون للاعتناء بالهيكل واملاكه. و اتت الهياكل على شيء كبير من الضخامة، لتليق بالآلهة كمعبد الكرنك» الذي يُنيفُ طوله على المائة متر. والتصميم المعتمد هو تقريباً في كل الهياكل و اقسامه الاساسية هي التالية: عند المدخل برجان ضخمان. وامام كل منهما تنتصب مسلة حجرية وسارية ترفرف عليها اعلام وفي بعض المعابد يحيط بالمدخل صفان من ابي الهول». وفي نهاية المدخل بو ابة تؤدي الى باحة محاطة بالأعمدة. وفي نهاية الباحة « بهو الذي لا يدخله إلا الكهنة والمتنفذون ويلي «بهو الاعمدة حجرة سرية تحيط بها مقصورات تعج بالنفائس، وفي وسطها المركب المقدس. بينما تمثال الإله يوضع في فناء المعبد. الاعمدة

- المقابر كانت المقابر متنوعة المظاهر متفاوتة الاحجام كأن تكون عادية بشكل مصطبة او تكون هرما مُدَرَّجًا أو هرما ضخماً أو تكون منحوتة في شاهق صخري بعيد المنال واهتم الاغنياء بجعل مومياء موتاهم في حرز حريز، حتى لا يعبث بها اللصوص. فاذا نبشت الجثة لا يفي التحنيط بالغاية المرجوة منه. والمقتنيات الثمينة التي تدفن مع التي تثير طمع اللصوص في نبش القبور والعبث بالموتى.

وقد جرت العادة في البدء ان يُوارى الميت في سرداب ارضي متعرج، الاهتداء اليه. ويُبنى فوق مدخله مصطبة كبيرة أو صغيرة، حسب مركز الميت. وخطر لأحد الفراعنة، واسمه «سنفرو (Snefrou) ان يقفل السرداب بعدة مصاطب، فاعطت شكل الهرم المدرج المعروف باسم هرم سقاره المدرج. وما الهرم المدرج إلا مرحلة وسطى بين المصطبة والهرم بمعناه الحقيقي . ففي الجيزة بالقرب من القاهرة اليوم، أو بالقرب من منف، عاصمة الدولة القديمة بنى الفراعنة «خُوفُو» و «خِفْرِن» و «منكورع» ثلاثة اهرامات لتكون قبورًا لهم. وجعلوا في داخلها السراديب يضيع فيها من يتسلل للسرقة. والشكل الاخير للمقابر هي المحفورة في الشواهق الصخرية المطلة على وادي النيل. ومنها قبر «توت عنخ أمون».

وتشتمل المقبرة عادة على ثلاثة اقسام اولها السراديب المتعرجة، ثم الغرف الخالية المزينة الجدران والمحتوية على نفائس جمة، ثم بئر عميقة تنفذ الى حجرة الميت وفيها الناووس الحجري وضمنه المومياء.

- الرسم شغف المصريون بالرسم لأنه يخدم الاغراض الدينية؛ فروح الميت كما رأينا، تستمر في الحياة مع الجسد المحنط وتتذكر ايامهما معا. والذكريات هذي تتمثل فيما على جدران المقبرة من رسوم يظهر فيها الميت، وكأنه انسان من العالم الآخر طلق الأرض وجلس ير اقب مشاهد من حياته الماضية. فرسموا الطبيعة والحيو انات، و افتنوا في الالوان واعتمدوها لا في الرسوم فقط بل في طلي النقوش والتماثيل أيضاً.

وخضع الرسم، وكذلك النقش، لقو انين ثابتة مقيدة للفن والفنان معا. فالشخص الهام يجب ان يظهر أكبر من سواه دون مراعاة الابعاد. وإذا كان المنظور في وقفة جانبية رسمت العين كاملة والكتفان عريضين كما في الوقفة المواجهة وإذا كان لا بد من اظهار الشخص اثناء الحركة فتكون الحركة من نصيب الأعضاء البعيدة عن عين الناظر الى الرسم؛ أو بعبارة أخرى، او نقش رجل ينظر الى اليمين فالحركة تكون من نصيب ذراعه أو قدمه اليسرى. وهذا معناه وجوب مراعاة الاصطلاح على حساب الابعاد.

ولم يتحرر الرسم من هذه القيود إلا ايام اخناتون، ليعود من بعد الى سيرته الاولى. وفيما عدا ذلك لم ينعتق الفنانون من هذه القيود إلا عندما رسموا العامة او مشاهد من حياتهم، فظهرت عندئذ كفاءاتهم حسبما يتطلبه الفن لا القانون.

- النحت كذلك خضع النحت للعقائد وللقو انين الثابتة ونحتت التماثيل لتلبي حاجتين كلتاهما دينية. أولاهما ان تماثيل الفراعنة والآلهة معدة لتزيين واجهة المعابد، فاقتضى ان تكون ضخمة رصينة، تمثل الفرعون جالسا ويداه على ركبتيه، قدماه متوازيتان حتى ليشعر الناظر الى التمثال بان صاحبه يبذل جهدًا مستمرًا للمحافظة على هذه الوضعية. اما إذا كان التمثال و اقفاً، فالقدم اليسرى تتقدم اليمنى. وبالرغم من كون تقاسيم الوجه تنم عن اسارير هادئة فإنها لا تترجم نفسية صاحبها على حقيقتها.

اما الحاجة الثانية الى التماثيل فنابعة من الفكرة الدينية القائلة بان الجسد يجب ألا يتفكك. لذلك رأى الميسورون ان يضعوا في قبورهم اشباها لهم لا تمسها يد الفناء، فلا خوف اذاك ان لم يف التحنيط بالغاية المرجوة منه

وحرص النحاتون على جعل التماثيل مطابقة لأصحابها. فاتت تماثيل النبلاء وغيرهم من الموظفين نابضة بالحركة عكس تماثيل الفراعنة. ولشد ما كانت دهشة السكان حين عثر المنقبون عام 1926 على تمثال خشبي لاحد الموظفين، تقاسيمه نسخة طبق الأصل عن هيئة عمدة البلدة، فاتفقوا على تسميته باسم «شيخ البلد».

وكما في الرسم كذلك في النحت، كانت ثورة اخناتون الدينية فترة تحرر فني. فغدت التماثيل والموضوعات أعمق تعبيرا بعيدة عن الجمود، قريبة من و اقع صاحبها ونفسيته وفي هذا دلالة على ان الفنان المصري لم تعوزه المقدرة لو ترك حراً في ممارسة فنه. وبالرغم من العودة الى القو انين التقليدية بعد موت اخناتون، فلم تخل المنجزات الفنية اللاحقة من

تأثيرهذه الثورة. و ابلغ الأمثلة ذلك تمثال لرعمسيس الثاني يظهره جائيًا متعبدا للإله، وفي ذلك محاولة تنكرلكل القو انين الجامدة السابقة.

على اشتداد الطلب على التماثيل قل اهتمام النحاتين بالتفاصيل. فأكثروا من الانموذج الواحد يباع لمن يطلبه كذلك لم يقتصر النحت على التماثيل فقط، فثمة «المسلات» و «ابو الهول» الخرافي، وان كان وجهه يشبه الفرعون خفرن. وثمة اعمدة الهياكل ذوات التيجان المنقوشة بشكل زهرة عر ائس النيل أو اللوتس». وتزدان المعابد والمقابر، والأعمدة نفسها بالنقوش والكتابة الهيروغليفية لما تضفيه من رونق مكمل للبناء.

- الفنون الأخرى وليس هذا كل ما خلفه المصريون من فنون، فثمة والفنون الصغرى»، والمقصود بها المصاغ الذهبي الذي اقتنته النساء او ازدانت به المقابر.